خالد محمد خالد

في البدء كان الكلمة

المقطم
للنشر والتوزيع

في البيت كان الظلمة

خالد محمد خالد

في البدء كان الكلمة

المقطم
للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved

المقطم للنشر والتوزيع

القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215
7946109
Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

في هذا الكتاب

صفحة

١ – « الكَلِمةُ وَثيقَـــــةُ آدَمِيَّتِنـــا » ٩

٢ – « الصِّراعُ بين السُّلْطةِ والكَلِمـــة » ٢٩

٣ – « حرية الكلمة ، حَقٌّ مُطْلَـــق » ٥٣

٤ – « عندما تكُون الـــكلمةُ : لا » ٩٧

٥ – « الكُتَّـــــــاب ، والكلِمة » ١١٩

٦ – « وَبَعْـــــد . . . . . » ١٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَة

موضوعُ هذا الكتاب يتلخَّص في أنَّ حرية الكلمة «حقٌّ مُطْلَق» لا يخضع لأي اعتبار، ولا يملك قانونٌ حقَّ تقييده، ولا يملك عُرفٌ حق تحديده.

ونعني بالكلمة هنا: تلك الأدَاةَ العاقلة التي يُعبِّر بها الفكر الإنساني عن ذاتِه.

فحرية الكلمة شيء آخر، أكبر قدرًا، وأوفى قَداسةً، من حرية اللَّغْو، والشَّغَب، والمُهاتَرة.

والذي يَميزُ «الكلمة» من «اللَّغو» هو الفِكر نفسُه.. والفكرُ وحدَه.

° ° °

حرية الكلمة بهذا المفهوم. حق مُطلق.

ولقد يُسارع بعضُ القراء إلى الظن بأننا نُعطي «الكلمة» أهمية مُفرِطَة ، وأننا نكتب في هذه الصفحات بحثًا تجريديا ؛ مادُمْنا نتحدث عن «الحق المُطْلَق» في عالَمٍ كُلُّ أموره وحقوقه نِسْبِيَّة .

بَيْدَ أنَّه من الخير لأصحاب هذا الظن – إن وجُدوا – ألاَّ يتعجَّلوا ظُنونهم ؛ وأن يُقبلوا على قراءة البحث مطمئنين إلى أنه يستمدُّ من الواقع جوهَره وشكلَه .

ولقد آثرنا في دراستنا هذا الموضوع أن تكون صِلَتُنا بالواقع أوسعَ أبعادًا ، وأرحبَ آفاقًا .

وكان السبيلُ لهذا ، أن نُناقش القضية في مستواها العالَمي والتاريخي .

ذلك أن «حرية الكلمة» لم تُعانِ أزماتها في جيلنا وحده ، بل عَبْر التاريخ كله .

وهي اليوم ، لا تعاني أزماتها في بلدٍ . ولا في اثنين . ولا في عشرة . . بل إن تسعة أعشار المجتمعات والحكومات في عالمنا كلِه ، لَتُسْهِمُ في إزْجاءِ الأسباب التي تجعل حرية الكلمة في أزمة .

° ° °

ونحن نُشخّص هذا الوَضع بأنه «أَزْمَة» . .

وهناك مفكرون لا يرونه كذلك . . ويرون أن هذا الذي نحسبه أزمة . . ليس إلاَّ مرحلة جديدة في تطور الحرية. ليس إلا مفهوما جديداً وشكلا جذيداً يحقق بهما جوهر الحرية ذاتَه .

ولكلٍّ رأيُه . . وواجبنا أن نحترم كل رأي مهما يكن مغايراً ومناهضا ، ولكنْ من حقنا كذلك أن نعرض وجهة نظرنا ما دمنا بها مقتنعين .

هذا ما نحاوله في هذه الصفحات .

° ° °

ولستُ أزعم أنني أوفيتُ على الغاية في بحث القضية المعروضة هنا .

ولعلّ السبب في هذا أنني لم أتعود أبدا ، ولا أريد أن أعْتَادَ أبدا ، الوقوفَ من قرائي موقفَ المعلِّم أو الأستاذ .

إنني مجرد واحد منهم ، يأخذ مكانه بينهم جميعاً ، ليتدارس معهم الفكرة التي تدور حولها خواطرُه ، مكتفياً من القول . ومن الحُجّة بما يمكن أن يكون نُقطة انطلاقٍ لتفكير الآخرين وحوارهم . .

° ° °

ولقد بدأتُ بالحديث عن الكلمة باعتبارها «وَثيقةَ

الآدميّة» لكل البشر..

• ثم عرضتُ في إيجازٍ لقصة الصراع بين السُّلطة، والكلمة، محاولا أن أهتدي إلى الدرس الذي يعلمنا إياه ذلك الصراع..

• ثم عرضتُ رأيي في أنَّ حرية الكلمة «حق مطلق»، وفي أن الاقتناع بهذا، هو سبيل البشرية الأمثل إلى تثبيت خُطاها المُجهدة..

• ثم تحدثتُ عن الكلمة حين تكون: لا... أعني حين تأخذ دور المناقشَة والمعارضة. ورأيت أنها في دوْرها هذا، أبرُّ صديق للشعوب وللحكومات معا..

• ثم تحدثت عن الكلمة في وَطَنها الأوَّل.. في عقل الإنسان، وحاولت أن أعرف واجب الكُتَّاب وحَمَلَة الأقلام نجاهَ الكلمة.

هكذا سِرْتُ بالحديث عبر هذه الصفحات التي هي أشْبهُ بالنِّداء، منها بالكِتاب.

* * *

تُرى، هل بقي شيء أريد أن أقوله في هذه المقدمة..؟

أجَـل..

أريد أن أقول للقارىء: إذا كنت ستقرأ هذا الكتاب

كَلِمَة كلمة ؛ فعليك أن تُناقشه كلمة ، كلمة . .

إن هذه الصفحات لا تطمع في أن تُعلِّمك شيئا جديدا . وإنما تطمع في أن تَحفِزَك إلى تَحريكِ عقلك في الجهات الأربع .

وتَحفزك إلى أن تُنمِّي لدَيْكَ فضيلة البحث الحُرِّ عن الحق .

وتَحفِزك إلى حَمْل أمانة وُجودك ؛ بأن تُناقش كلَّ ماحولَك من قضايا الوطن ، وقضايا البشَر ، وقضايا الحياة .

خالد محمد خالد

الفصل الاول

الكلمة وثيقة آدميتنا

عاش الناس دهرًا طويلا لا يتكلمون ولا يَسْطُرون .

عاشوا . . أو عاش ذلك الرَّعِيل الأول منهم ، وهو لا يكتب ولا ينطق ولا يُبين .

كانت الإشارة الخرساء أداةَ تفاهمهم .

ولو قد طال عليهم الأمد وهم داخل هذا الحصار لظلُّوا من مَطالع الضوء جِدَّ بعيدين .

لقد كانوا يعيشون فوق ظهر الأرض الواسعة المُوحِشة : يزدحمون حول مياهها وعشبها ، مع صفوف هائلة من كائنات حية كثيرة ، من وحوش ، وأنعام ، وطيور .

وكان الجنس البشري مُمثلا في طلائعه تلك ، يخوض سباقًا ضاريًا مع بقية الكائنات .

وكانت مقادير الحياة في هذا الكوكب تُضمر في نفسها سرًّا جليلا فَحْواه أن الذي تنحلُّ عقدة لسانه أولاً ، سيجيء أولاً .. وانحلّت عقدة لسان الإنسان . وبدأ الناس يتكلمون ، فبدأت مع كلماتهم طلائع المستقبل وبشائر المصير .

آه لو نعرف أول كلمة ، تحرك بها أول لسان . . ! ! إذن

لما بَخِلنا عليها بكل صنوف التمجيد والتخليد .

فمع تلك الكلمة الأولى دقَّت أجراس النصر للإنسان .

مع تلك الكلمة الأولى . أعطت المقادير إشارة البدء للقافلة البشرية وأصبح معروفًا أن لواء السيادة على هذا الكوكب سيعقد للإنسان ، وأن المستقبل كله سيدخل في طاعته ، وأن المجهول سيفضي له شيئًا فشيئا بأخباره وأسراره.

أجل ، مع الكلمة الأولى بدأت عظمة الإنسان ، ومعها أيضًا بدأ بُؤسُه . . ولكنه بؤس عظيم ! !

° ° °

ونحن من تلك اللحظة المُوغِلَة في القدم إلى يومنا هذا ، وإلى غدنا كله . لا نُقلِّب وجوهنا في الآفاق التي ملأناها عملا وإبداعًا ، إلا رأينا الكلمة أمام كل عمل وكل إبداع .

ذلك أن الكلمة لم تكن تعني تجويفًا صوتيًا ، أو همهمة تتحرك بها عضلات الحلق واللسان . بل كانت تعني ميلاد فكر جاء على شوق وقدَر ، بعد مَخاضٍ هائلٍ اضطرمت به الحياة طوال ملايين كثيرة من السنين . . ولم تتحرك أنسنة طلائعنا الأولى ساعة تحركت إلا تحت وطأة ثِقَل الفكر الإنساني واحْتِشاده ، وصحيح أنه في ذلك العهد البعيد لم يكن مع الإنسان فكر بالمفهوم المعاصر للفكر . بَيْدَ أنَّه كان طاقة كبيرة تَموزُ مَوْرًا بالأحاسيس الغامرة ، والاستعداد المواتي .

والأشواق المبهمة .

ولقد بدأنا نعي وجودنا يوم تكلمنا . .

شرَعنا نجاوز الظلام ، ونتخطى العَمَاء ، ونخترق أسوار العزلة . . ولا نكون مُغالين إذا قلنا : إننا يومئذ – لا قبْلئذ – أُعطِينا شهادة ميلادنا ، ووثيقة إنسانيتنا . . !

ذلك أنه حين فُضَّت عن الأفواه أقفالُها ، بدأت أُولى الخطوات في السيطرة على ما مَعنا وما حولنا . . بدأ الوجود الإنساني يحيا وينهض قائمًا .

ولعلّ الدين يشير إلى هذه الحقيقة في لَفتته الحكيمة الباهرة حين يقول العهد الجديد «في البدء كان الكلمة» . . وإذ يقول القرآن الكريم : «وعلم آدم الأسماء كلها» ، و«إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن ؛ فيكون» .

° ° °

ولا أعرف شيئًا يكشف عن قيمة الكلمة . وما وراء الكلمة من فكر ، مثل أن نتصور الكوكب الذي نعيش فوقه ، وهو خال من الكلمة من الفكر . . وتَصوُّر ذلك في منتهى اليُسر .

اعزل الإنسان عن هذا الكوكب . . تصوَّر الأرضَ في غياب الإنسان . وانظر ماذا ترى فيها ؟ ؟

لا ترى شيئا سوى التّيه والظلام ! حقا سيكون هناك

بحار تصطخب أمواجها ، وعواصف تزحَم الأفق بزئيرها ، ورُجُومٌ وشُهب ، ووحوش ودَواب وزواحف . . ثم ماذا ؟ ؟

لا شيء سوى الخَواء ، والعَماء ، وظُلمات من فوقها ظُلمات .

وإذا فرغتَ من تأمُّل هذه الصورة فاذكر أن الأرض كانت كذلك أيضا وفيها الإنسان ، يوم كان الإنسان صامتًا لا يتكلم ، فلما نبت فيه عقله ، وتحرك لسانه بالكلمة المنطوقة ، ثم جرَت يمينه بالكلمة المسطورة أخذ وجه الأرض يتغير ، وسارت فوقها مواكب الحياة تَتْرَى .

أهناك إذن في الحياة الإنسانية كلها ، جلال يفوق جلال الكلمة ؟ ؟

أهناك غرَض مهما تكن قَداستُه وحَتْميته ، يستحق أن تُعطَّل من أجله الكلمة وتقدم إليه قُربانًا . . ؟ ؟

إن الأمر لَيبدو ، وكأنما أُعِدَّت الأرض وهُيئت الحياة لتكونا مسرحًا للكلمة ومجالاً للفكر ليس غير . . ! !

ولو أننا نعيش في العصور الخالية ، ونكتب هذه الكلمات بأسلوب الأساطير الذي كان يكتب به شاعر مثل «هوميروس» مثلا لقلنا :

إن الإنسان الذي ودَّع المشي على أربع ، يسير بقامته المنتصبة . . والله سبحانه يرى تقلُّبَ وجهه في السماوات ،

وعَنَاءَ سَعْيه في الأرض ، وهُوَ به فَرِح وإليه ناظر . . يترقب على شوق ، اللحظةَ التي تنفرجُ فيها شَفتاه .

. . . وذات يوم ، صاح الله في وجهه : ماذا تنتظر؟ تكلَّم . . ولم يشعر الإنسان من جلال الصيحة وقوتها إلا ولسانه يسبقه ويقول : أَتكلَّم . .؟ تقول : تكلَّم . .؟؟

وفي التَّوِّ دوَّى الكون كله بهُتاف الفرح والغبطة : لقد تكلَّم الإنسان . . لقد تكلَّم الإنسان . . ! ! واهتز مركز الكون من الفرح ، وتطايرت منه في ضخامة هائلة بعض أجزائه الفرِحَة التي كأنما جاءت تحتضن الإنسان . . فصارت قطعة منها شمساً تضيء للإنسان نهاره وتمنحه الدفء والقوة . وصارت قطعة أخرى قمراً يضيء له ليله . . وبكت السماء من الحبور والغبطة فكانت من تلك الدموع بحار الدنيا وأنهارها ، وحقدت عليه دوابُّ الأرض فسُخِّرت له ظهورها . . ! !

* * *

على أننا في غير حاجة إلى استعارة خيال كخيال « هوميروس » لِنُزَكيَ به جلال الكلمة وقيمتها .

ففي عصر العقل هذا ، وبلُغةِ العقل وحدها تستطيع الكلمة أن تبلغ من المكانة والشأْو ما لا تطمع أسطورة في الصعود بها إليه . . فحين نرى قُوى الطبيعة اليوم مُسَخَّراتٍ للإنسان يُصرّفها كيف شاء ، يقول لنا العقل : إن شيئاً من

هذا لم يكن سيحدث لو ظلَّ الإنسان أبكم لا ينطق ، أعمى لا يفكر. وهذه المعجزات التي تمَّت ، والتي ينادي بعضها بعضًا في عوالم الفن ، والفكر، والعلم-إنما كانت لأن الإنسان فكَّر ووعَى ، وصاغ فكره ووعيه في كلمات تَنقَّل بها تُراثه من جيل إلى جيل .

* * *

كان بدء انطلاق البشرية إذن ، يوم انزاحت عن الأفواه أقفالُها . . يومئذ أرهَصَ المصير الإنساني بكل مَغانِمه المقبلة .. ويومئذ تغيرت الأرض ، ولم تعُد من ذلك الحين غابةً ، بل صارت وطنًا . . وأقبل الناس بعضهم على بعض يكتشفون وجودهم وجوهرهم .

لقد صاروا خلْقًا جديدًا . .

إن الكلمة ساعدتهم على الإحساس بحقيقتهم . . . الإحساس بأنهم طلائع الحياة في أعلى مراحلها على هذه الأرض . . إنهم لم يعودوا والعجماوات سواء . . إنهم تَباشِيرُ النوع الجديد الذي سيحمل إرادة الله في هذا الكوكب . . إنهم أَوائِلُ هذا النوع وبَواكيره وتَباشِيرُه ، إذن فَهم بشر . .

وهم أَناسِيّ ، فمنذ تكلموا آنسَ كل من أخيه أمْنًا ورُشْدا . . وبعد أن كانت الأرض بالصمت مكانا موحِشا ، أضْحت بالكلمة مكانًا مَأْنوسًا . . ! !

هؤلاء الناس ، وهؤلاء البشر ، صاروا «ناسا» وصاروا «بَشرًا» بالفكر وبالكلمة .

* * *

وحين نقول : الفكر والكلمة لا نعني شيئين مُتغايرين . . فالفكر ، ووسائل التعبير عنه شيء واحد ، والكلمة التي هي أوضح أدوات هذا التعبير تمثل الضوء المنبعث من الكوكب العظيم .

وحرية الفكر ، تعني تماما حرية الكلمة .

وحين تفكر فأنت تتكلم حتى لو لم تَنفْرج شَفتَاك ، ويتحرك لسانك ؛ لأن عملية التفكير نفسها ، إنما هي عملية حديث نفسي في أعلى مستويات الإدراك النفسي .

أجَل ، إن التفكير حديث العقل مع نفسه ، ولقد أثبتت تجارب العلم أن الحبال الصوتية تهتز حين يفكر الإنسان في صمت تفكيرًا عميقا . . رباط أزلي وثيق بين الفكر والكلمة ، فخَنْق الكلمة خَنْق للفكر ، وخنق الفكر محاولة لإلغاء دور الإنسان ووجوده ؛ لأن الإنسان – كما قلنا – لم يَصِرْ إنسانا إلا حين أنبت الله العقل في دماغه ، والكلمة في لسانه وبَنَانِه .

* * *

ونحن البشر ، أصحاب دوْر عظيم في كون الله العظيم . وحتى لو كان هناك كواكب مأهولة . وحتى لو يكون سكانها

وأهلوها أكثر مِنًّا سَبْقًا وأكثر رُقيا فلن ينقص ذلك من عظمة دورنا شيئًا . . إنما ينقص من عظمة هذا الدور ويُلاشِيه كلُّ انتقاصٍ من سيادة الفكر وكل تحديد غير مشروع لنشاط الكلمة .

ألَسْنا نقول ونؤمن بأن المسيح ومحمدًا أخرجا الناس من الظلمات إلى النور. وأضاءا في الضمير الإنساني نورًا سدَّد خُطاه ، ووصَلَه بكل المصاير العظيمة الواعِدَةِ لبني الإنسان ؟

فلننظر إذن أية جناية على العائلة البشرية كانت ستحيق بها لو استطاعت قُوى الظلام أن تخنق الكلمات التي انبعثت من محمد وأخيه حاملةً الهدى والنور ؟ !

لو أن المسيح في أُولى محاولاته ، وأُولى كلماته ساعةَ استقبل الدنيا ليقول لها « قد اقترب ملكوت الله » راح ضحية قوة باطشة ، فمن الذي كان سيملؤ سمع الحياة ووجدانها بهذا اللحن المضيء الهادر – موعظة الجبَل . . ؟ !

ومن الذي كان سيَجْبَهُ الكهنة ، المتَّجرين بالدين ، والطغاة الناهبين أجور الفعَلَة والحصَّادين . . ؟ ؟

ولو أن محمدًا حين وقف يعلن أن لا إله إلا الله ، ذهب ضحية خصومِه من أعداء الكلمة والصدق والوضوح ، فمن الذي كان سيبلِّغ رسالة الله ويتلو قرآنه ؟

من الذي كان سيرفع راية التوحيد فوق حُطام الوثنية .

ويذيع نَعْيَ أربابِ الأرض المتجبرين فيها ، وينادي الكادحين والبُسَطاء إلى يومهم الموعود ، في عالَمٍ ، الناس فيه سَوَاسِيةٌ كأسنان المُشْط . . ؟ ؟

حقًا إن الكلمة هي الحياة . .

أطفىء الكلمة ، تنطفىء كل شموع الحياة .

أَعِدِ الألسنة إلى صمتها القديم ، واكْبَح الأقلام بالشّكائِم ترجع الحياة في نفس اللحظة ، ولنفس السبب إلى بَدَاوتها ووحْشتها وظُلماتها .

* * *

والكلمة المسطورة بصفة خاصة ذات مقام عظيم ، يتناسب مع دورها العظيم .

إنها السفير الأبدي الذي لا يضع عصاه عن كاهله . . ، السَّفير الذي يقضي العمر جوَّابا بين العصور والأجيال . يَصِلُ بينها ما انقطع ، ويُحْيي ما انْدَثر .

إنها تنقل إلى كل فرد من الناس – إذا شاء – ثَراء العقل البشري ورصيده ، وإنها لَتَهب الخلود لكل آثار البشر وتاريخهم .

إنها هي التي تجمعنا اليوم ، وغدًا ، وأبدًا ، بأفذاذ الخليقة ورُواد حياة لإنسان .

فـ « سُقراط » ، مثلا ، الذي اختفى عن دنيا الناس منذ

قُرابة ألفي عام وثلاثمائة وسبعين عاما – تجمعنا به الكلمة وكأنَّه حي بيننا يغدو ويروح ، مُطِلاً علينا بجبهته العريضة وحكمته الكاسحة . . ! !

وهي – أعني الكلمة المسطورة – تُسْمعنا تغاريد «بوذا» عند سفوح الهملايا . . وتنقل إلينا حكمة «حَمورابي» من أعماق بابل . . !

ألا ما أروَعها . قاهرة الزمن والقِدم . .

فبينما ينقضُّ الموت على الناس ويأخذهم عن الحياة كأَنْ لم يُوجَدُوا ؛ نرى الكلمةَ المسطورة تستنقذ من ذلك الموت الداهم أخبارهم ، وتُراثَهم ، وأفضلَ وأغنى أجزاء حياتهم من رُوح وعقل ، ثم تهَبُ ذلك جميعَه خلودا تتحطم على ذُراهُ كل إرادة الفناء ومُحاولات العدم . . ! !

وبهذا – أيضا – تُمكِّن الحياة الإنسانية من أن تحقق تجانُسها واكتمالها ، حين يتحول شَتات المعرفة إلى موكب مُتناسِق الخُطى ، مَوصول الحلَقاتِ .

فالكلمة المسطورة التي سجل بها «ديمقريطس» و«أبيقور» حَدْسَهُما عن الذرَّة وما في جوفها من طاقة – ظلَّت جنينا حيا ناميا يتقلَّب في الوعي الإنساني عصرًا فَعصْرًا ، وجيلاً من بعد جيل حتى بلغ في عصرنا هذا أشُدَّه ، وأُطلِقَت الطاقة من مَكْمنها .

والكلمة المسطورة التي سجّل بها العالم العربي المسلم «علاءُ الدين بن النَّفيس» فكرته عن الدورة الدموية وتنقية الدم في الرئتين بسبب امتزاجه بالهواء الخارجي.. هذه الكلمات التي سطّرها ابن النفيس.. في القرن الحادي عشر، كانت النور الذي ظلَّ يسعى بين عقول الباحثين في هذا المجال حتى وضع العالم البريطاني «هارفي» يده آخر الأمر على قانون هذه الدورة كاملا.

والكلمات المسطورة التي أودَعَها بعض فلاسفة الإسلام «إخوان الصَّفا» و«ابن مَسْكَويه» أحاسيسهم عن أصل الأنواع وتطوُّر الإنسان في أواخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر ظلّت هي الأخرى تنموفي وجُدان العقل حتى استحالت أخيراً على يد «لا مارْك» و«دَارْوِن» معرفة ساطعة ونظرية وُثْقَى.

والكلمة المسطورة التي سجَّل بها العالم الاغريقي «ارسطرجس» في القرن الثالث قبل الميلاد، حَدْسَه الواعي بأن الأرض ليست مركزَ الكون وأنَّها تدور حول نفسها مرة كل يوم، كما تدور هي والكواكب الأخرى حول الشمس.

هذه الكلمات ظلت «مَنارًا» يرسل أضواء هذه الحقيقة عبر القرون حتى صارت ذات يوم بديهة كبرى.

والكلمة المسطورة التي صاغَ بها «ثورو» رأيه في العصيان

المدني عام «١٨٤٩» ثم مات «ثورو» وضاعت الصفحات التي خلَّفها في زحام الحياة، أو بدَا أنها ضاعت وذهبت مع الريح حتى وقعت هذه الكلمات صدفة في يوم من أيام عام «١٩٠٧» في يد شاب «هندي» كان يعاني في جنوب أفريقيا مع بني وطنه المغتربين اضطهادًا وَقحًا، واستعبادا مُذلا، فإذا الكلمات التي ظُنَّ أنها تبدَّدت وتاهت، تُشعل في وعيه النار المقدسة وتدلُّه على طريق الخلاص، ويحدثنا هو عن أثرها فيه فيقول:

«وبينما أبدأ نضالي، تلقيت من صديق لي كتاب «العصيان المدني» فما إن قرأته حتى ملأني قوة ويقينا وذهبت أترجم بعض فقرات منه وأنشرها في المجلة التي كنت أصدرها في ذلك الحين.. ولقد كان في كلمات «ثورو» من صدق التعبير وقوة الإقناع ما جعلني أشعر بحاجتي إلى المزيد من المعرفة بـ«ثورو».. وأخيرًا عرفت كيف أن رجالا فُرادَى مثل «ثورو» قد انتصروا لأنهم تقدموا الصفوف بتضحياتهم فكانوا قدوة للعالم»..

هكذا تأثَّر هذا المحامي الشاب الهندي بكلمات لم تكن تقع عليها العين في زحام المكتبات، ولكنها مع ذلك كانت تنطوي على قيمة كبرى، فما إن لاَمسَتْ رُوحَ هذا الثائر الهندي الناشيء حتى أبانَت له الطريق، وقهر الطغيان الذي

كان يعذب قومه في جنوب أفريقيا.. ثم انتقل برسالته وبنضاله إلى وطنه الكبير الهند.. وهناك، وكلمات «ثورو» لا تزال تنمو داخل ضميره، قاد أمته المستعبدة حتى حققت أعظم انتصار بأنظف وسيلة.

هل عرفتم ذلك الثائر..؟؟

انه قِدّيس عصرنا الحديث.. غاندي ! !

* * *

ومهما نَضرب الأمثال على قيمة الكلمة المسطورة وجلالها فستَنْفَدُ الأمثال قبل أن تنفَد هذه القيمة وهذا الجلال.

والحق أن جِنْسنا البشري مَدين للكلمة دَيْنًا كبيرًا، وما تاريخ البشرية في حقيقته إلا تاريخ الفكر والكلمة. وإن الإرادة الإنسانية التي دهَمت المصاعب، ودغدت الصخور، وحققت المعجزات، لم تكن ستبلغ من أمرها شيئا لولا الفكر يُزْجيها؛ والكلمة تشدُّ أَزْرَها وتَهديها.

ولم يمرَّ بتاريخنا ثائر عظيم، ولا رائد مُقْتحم، ولا زعيم صادق إلا كانوا جميعًا «تلاميذ» مخلصين للفكر، يجلسون بين يديه، وللكلمة المسطورة تكتَحِلُ بها أعينهم عند منامهم، وتتفتَّح أول ما تتفتح عليها حين يقظتهم، ويعرفون لها ولأهلها قدْرَهما الكبير.

ولْنقلِّب أبصارنا حيث نشاء، ولنستعرض ثورات الناس

من مصر القديمة.. إلى أثينا.. إلى روما.. إلى أوربا..
إلى الشرق والغرب، نجد بين أيديها جميعًا فكرًا باسلا،
وكلماتٍ أشدَّ مَضاء من السيوف، وأكثر صلصلة من أجراس
الخطر، وأهْدَى في الظلمات من كل ضياء.

وإن انتصارات البشرية في مجالات العلم، والفن،
والأدب، والإجتماع.. جميع انتصاراتها التي تحققت والتي
ستتحقق إنما ربحتها الكلمة الدَّءُوب المثابرة.

القوة التي هدَّمت عروش الجبارين. وأزاحتهم من طريق
الشعوب، كانت الكلمة..

والنور الذي هدى البشرية إلى مَدارج ارتقائها وأخرجها
من ظلام التأخر والجهل، كان الكلمة..

ودائما – في البدء كان الكلمة..

ومع هذا فجنسنا البشري لم يحذِق الدرس جيدًا..
وكعادته في التمرد حتى على خالقه، تمرد على الفكر الذي
أعطاه صُموده، وعلى الكلمة التي منحته خلوده!!

ولقد كُتب على الكلمة أن تخوض صراعا طويلا وعاتيًا
مع السُّلطة تارة، ومع الناس تارة أخرى.

ولَطالما أُوقِدت المشاعل حول شهداء الكلمة، وتحلَّق
حولهم الناس ليشهدوا في شماتة مصيرهم الفاجع..!!

ولطالما تُركت لجوارح الطير وكَواسِرها جُسوم مصلوبة

كان كل ذنب ذويها أنهم حملوا إلى عصورهم الراكدة الضالة حياة جديدة وهُدى جديداً.

أجل.. صادفَت الكلمة عَبْر العصور أذىً كبيراً من الجماهير ومن الحكام.

على أن الصراع الكبير كان دائماً بينها وبين السلْطة.. وكانت تخرج من هذا الصراع بكثير من الجروح والدم المنزوف. ولكنَّ شعارها كان دائماً «كل ما لا يقتلني، يُحْييني».. ومن ثم كان الظفر النهائي لها، والمستقبل دائماً معها.

ولسوف نحاول أن نستعيد من التاريخ ذكرى بعض مشاهد ذلك النضال لِنُحَيِّيَ من خِلاله أبطالَ الكلمة الذين نَابوا عن الجنس البشري كله في صَوْن تُراثِه وتأمِين مصيره. ولِنشهدَ الجلالَ المُتبدِّي في تسامح الفكر وصموده، ولِنُفيدَ من العبرة التي تُفيئها قصة ذلك الصراع.

الفصل الثاني

الصِّراعُ بَيْنَ السُّلْطَةِ وَالكَلِمَة

الصِّراع بين السلطة والكلمة ، مختلف تمامًا عن الصراع بين القانون والحرية . .

ذلك أن الحرية تنتظم حرية العمل ، وحرية القول . وليس من حق الناس أن يفعلوا ما يشاءون دون ضابط أو كابح ، حتى لا تفسد الدنيا وتنقرض الحياة . ومن هنا لم يكن بُدٌّ من قانون ينظم سعي الناس وعلاقاتهم .

والأمر ليس كذلك فيما يتعلّق بالفكر.

إن الأمر مختلف جدًا بين أن أعتدي على غيري وأقول : أنا حر . . وأن أستخدم حرية عقلي ، وأقول : أنا حر . .

وتنظيم القانون لحرية العمل أمر مرغوب فيه وضروري لكن حرية الفكر لا ينظمها القانون ، إنما ينظمها ، ويرسم تُخومَها الفكرُ وحده .

ذلك أن الفكرة الخاطئة ، لا يَدْحَضُها إلا فكرة مُحِقَّة ، ومقاومة الفكر بقانون ، تُشْبه مقاومة النار بقاذفات اللَّهَب . . والفكر العادل لا خوف منه . . والفكرة الباطلة لا بقاء لها .

وإنه لَمن أكثر التجارب الإنسانية صدقًا أنّ الزَّبَدَ يذهب جُفاء «وأما ما ينفع الناس فيمكُث في الأرض»..

ومقاومة الفكر دفاعا عن الحق والخير والعدل، عملٌ ينافي كل قواعد الحق والخير والعدل، لأن هذه جميعًا ثمرة عمل الفكر ونشاطه.

إن كل قِيمِ حياتنا الإنسانية. إنما كشفها الفكر وجلاّها، وعليه وحده تبعة حفظها وتطوير انعكاساتها، وليس من حق عُرف أو قانون أن يزعم لنفسه غَيرة على هذه القِيم أصدق من غيرة الفكر الأمين.

وإذا كان الفكر قانونَ نفسه، فالكلمة كذلك. إذ الفكر في التحليل النهائي له، هو الكلمة.. وحرية التفكير تعني في نفس الوقت حرية التعبير، وأكثر الأفكار عظمة ونفعًا، لا تساوي شيئًا مّا، إذا هي ظلت هَواجِس مَخْبوءة في سَريرة صاحبها، ولكنها تُؤْتي نَفعَها، وتصير أفكارًا عظيمة حين تَبْزُغُ في كلمات يقرؤها الناس ويتدارسونها.

وكل الحقوق التي تَصُون سيادة الفكر، إنما تصون في الحقيقة سيادة الكلمة.. لأنك تستطيع أن تدير في خاطرك أكثر الأفكار خطرًا دون أن يحس بها أحد أو يؤاخذك عليها أحد.. لكن الصعوبات تَجْبَهُك حين تأخذ أفكارُك في الإفصاح عن نفسها.. حين تتكلم، أو تكتب.

وهكذا كان الصراع بين السلطة والكلمة ، صراعا يخوضه الفكر داخل الكلمة .

وعلى الرغم من أننا لن نُلمَّ بقصة هذا الصراع كاملة ، بل سنكتفي برؤية بعض ملامحها السريعة . . على الرغم من هذا ، فسنرى في ظروف الصراع وطريقته ونتائجه ما يَهبُنا اقتناعًا راسخًا بعدالة الحقوق التي ناضَلت الكلمة دفاعا عنها وجهادًا في سبيلها .

وسنرى كيف أن معظم القضايا التي نادت بها الكلمة ، واضطُهدت من أجلها ، لم تلبث إلا قليلا حتى صارت عقائد للناس وقوانين تَسنُّها السلطة نفسها .

وسنشهد من ذلك الصراع مَلامحه في ميادين الفلسفة ، والعلم ، والدين . . حيث أبْلَت الكلمة بلاء عظيما .

ففي ميدان الفلسفة والعلم تنادينا « أثينا » أولا . . حيث كان يحيا فيها فلاسفة شامخون يحملون تحت ضلوعهم قلوبا شجاعة ذكية ، يتحدثون في كل شيء ، ويناقشون كل مُقدَّس ، ويُزيحون من طريق العقل الأسلاك الشائكة . . ويرسل كثير منهم بصائرهم صوْب الغيب المحجَّب ، والمجهول المعتم ، ثم يعودون بأقباس مُضيئة ، ورُؤًى ظافرة .

هذا « أناكساجوراس » يعلن في كلمات شُجاعة

أن الشمس كرة ملتهبة ، فتقوم قيامة السلطة وتقوم معها قيامة العوام ومحترفي الكهانة ، ويرون في هذه العبارة اليسيرة «الشمس كرة ملتهبة» تجديفا في حق الآلهة وهرطقة ، وزيفا .. ويتقرر نفي «أناكساجوراس» .

* * *

وهذا هو «سقراط» ينشب صراع حاد بينه وبين السلطة وتتهمه بالعيب في الآلهة وإفساد شباب أثينا .

وسقراط لم يجحد الأُلوهَة ولم يفسد الشباب .. إنما كان يُفنِّد آلهة الأولمب الذين جعلت الأساطير منها ، ناسا يتقاتلون ويتشاتَمون .. !

كما أنه لم يفسد الشباب بل كان ضد لهوه وخموله وطيشه .

صحيح أن «سقراط» كان ضعيف الثقة بالديمقراطية وبحكم الجماهير نفسها بنفسها ، وهذا مأخذ يأخذه عليه الذين يخالفونه الرأي .. ولكن ، أكان ذلك مُبررًا لإعدامه..؟

إن الخطر الهائل الذي كان يشكله «سقراط» ضد السلطة هو خطر الكلمة .. وسقراط لم يقصد أبدًا أن تُشكِّل كلماته خطرا هدفه السلطة .. وإنما السلطة هي التي خافت كلماته واتخذت منها عدوا وخَصما .

لقد أصرَّ سقراط على أن يفكر حرا ، ويتكلم حرا ،

ويحيا حرا.. وكان إصراره هذا يتنقل إلى كل من حوله في سرعة الضوء، وهكذا تألّبت ضده أحقاد العجزَة في أثينا. ولقد جُن جنون قُضاته الذين حكموا بإعدامه حين اجتاحتهم نظراته الساخرة وهو يقول لهم:

«إنكم مخطئون إذا ظننتم أنكم بقتلكم الناس ستمنعون أيَّ ناقد من كشفِ شروركم... لا، ليس أيسر الطرق وأشرفها أن تُكمِّموا الأفواه، بل أن تُصلحوا أنفسكم، وتقيموا الميزان بالقسط»..

وطبعا لم تزد هذه الكلمات قضاته إلا حقدا، وإلا تصميما على الخلاص منه.

وراح سقراط شهيدًا مجيدًا للكلمة.

* * *

وبعد سقراط تمتحن الكلمة في شخص تلميذه «أفلاطون».

ففي سبيل حرية الفكر وسيادة الضمير، تعرَّض لمحنة تُثير الضحك والجزَع معا، حين بِيعَ الفيلسوف الكبير في أسواق الرقيق!!

لقد سمع «ديونيسيوس» ملك سراقوسة بأفلاطون وبعبقريته، فرجاه أن ينزل عليه ضيفا، واستقبله في حفاوة مُفِيضَة.. ولكن أفلاطون لم يكد بعد أيام يفتح

شفتيه ويحرك لسانه وينشر بين الناس أفكاره ، وينتقد بكلمات جريئة ، الفساد المندلع في بلاط «ديونيسيوس» حتى صَبَّ الملك عليه سخطه السامي ، فأمر باعتقاله ، وقذف به إلى جزيرة «أجينا» التي كانت حَليفة لأسبرطة ضد أثينا . . وهناك عرضه حاكم الجزيرة للبيع ، ووقف «أفلاطون» بقامته الفارهة المهيبة بين العبيد في سوق النّخاسة ، يزدحم حوله صياح التجار، وضوضاء المزاد ، لولا أن أبصَرَ به رجل كان يعرفه ، فاخترق الصفوف كالسهم وهو يصيح : وَيْحكم . . تبيعون أفلاطون . . ؟ ! ثم افتداهُ بماله . . ! !

° ° °

وبعد أفلاطون يجيء «أرِسطو» ليأخذ مكانه بين قَرابين الكلمة .

هذا الفيلسوف الشامخ الذي لم يكن أفلاطون يبدأ محاضراته إلا بعد أن يراه بين تلامذته يزين الحلقة ويضيئها ، فإذا تأخر، أرجأ أفلاطون حديثه وقال : «حتى يجيء العقل» .

هذا الفيلسوف العملاق كان مصيره هو الآخر، النفي في سبيل حرية الكلمة وكرامة الضمير ، لقد اتهمه خصومه بالإلحاد ، وألّبوا عليه السلطة التي قررت نفيه ، فسارع إليه وهو يقول :

«ليس من الحكمة أن أُهيء للأثينيين فرصة جديدة للإجرام ضدَّ الفلسفة»!! مشيراً بهذا إلى محنة سقراط.

* * *

ونغادر «أثينا» إلى «روما» في ركاب الفلسفة والعلم أيضا فنلتقي بـ «ايكتاتوس» واقفا يتحدى غطرسة روما وقياصرتها المتألهين، فيقول:

«إن الله هو أبو الناس جميعا، ونحن كلنا إخوة. فلا ينبغي لأحد منا أن يقول أنا أثيني، أو أنا روماني، بل عليه أن يقول: أنا مواطن في هذا العالم، والعالمُ كله وطني»..

«إنك إذا كنت قريبا لقيصر أحسست اطمئنانا وأمْنا فكم يكون اطمئنانك حين تكون قريبا لله»..؟

كلمات رشيدة مؤمنة، لكن هل يسكت عنها الامبراطور الذي يفرض على الناس عبادته، ويفرض على الدنيا تقديس روما..؟

لا.. ولقد لَوَّح للفيلسوف بقعقعة الأصفاد، فكتب الفيلسوف يقول:

«الأصفاد..؟؟

«ماذا تقول يا صاح..؟؟

«إنك ستُقيد بالأَصْفاد ساقَيَّ وحدهما..

«أما إرادتي فلا سلطان لك عليها»..!

وعلا رنين كلماته حين رأى صفوف العبيد المعذَّبين تقطع شوارع روما عانيةً مقهورة ذليلة.. عندئذ صاح:

«إن العبيد متساوون مع سائر الناس؛ لأن الناس جميعاً أبناء الله...

«إنه لَيجب علينا أن نخضع لله كما يخضع المواطن الصالح للقانون.

«إن الجندي لَيحلف يمينا ألا يُطيع إنسانا غير قيصر، أما نحن فنريد أن نطيع ضمائرنا الحرة قبل كل شيء».

ولم تُطق السلطة عليه صبرا، فأصدر الإمبراطور «دوميتيان» قراره، لا بنفي الفيلسوف وحده، بل وبنفي جميع الفلاسفة وطردهم من البلاد معلنا في مرسوم النفي أن الفلسفة أشد خطرًا من الوباء...!!

* * *

ونقطع الزمن وَثْبًا إلى أوروبا، فنلتقي بـ «برونو»..

إنه واحد من أقطاب التقدم الإنساني ومَعْلَمٌ شاهق من معالم التضحية النبيلة والاستشهاد العظيم..

لقد أعلن أن الأرض تدور حول الشمس، وأعلن أن ثوابت النجوم شموس تدور حول كل شمس منها توابع وكواكب.

وجزاءً وفَاقًا لهذه الكلمات الصادقة قررت السلطة محاكمته ؛ لأَنه ملحد ، فغادر بلاده إيطاليا إلى سويسرا وفرنسا وانجلترا وألمانيا حتى استدرجته أخيرا محاكم التفتيش وأغراه بعض زبانيتها المخادعين بالعودة إلى الوطن . . وفي الوطن حُوكم وأحرق حيا . . ! !

* * *

ومِثل «برونو» – «كوبرنيكس» و «جاليليو» فإن بضع كلمات مجيدة ذكية تحدثا بها عن حركة الأرض وكرويتها ، سبَّبت لهما السجن والتنكيل والاضطهاد . . هذه الكلمات التي أصبحت فيما بعد بَدائِهَ يتعلمها الأطفال في كل مدارس الدنيا ويأخذ الكبار مكانهم بين الزواحف إذا لم يؤمنوا بها . . ! !

* * *

وتَرعرع الكلمة المسطورة بين يدي «توم بين» في كتابه «حقوق الإنسان» حيث تتألق الحقائق التي رسم بها الرجل لِعالَمنا الحديث طريق خلاصه .

« كل حكومة وراثية ، هي بطبيعتها حكومة استبدادية».

ألقى هذه القذيفة يوم كانت شعوب الدنيا تخضع للعروش وللحكومات الوراثية والْتفَتَ صَوْب أكثر هذه العروش عُتُوًّا وسيادة فقال :

«إن انجلترا ستضحك غداً من نفسها حين تذكر أنها استوردَت رجالا يحكمونها، تنفق عليهم الملايين وهم لا يعرفون حتى لغتها، ولا تؤهلهم مواهبهم لأكثر من وظيفة حارس كنيسة، . . .

عندئذ تحكم عليه السلطة بالموت، وتتهيأُ المشنقة لاستقباله فيهرب إلى فرنسا.

ويكتب كتابا آخر «عصر العقل» وعلى الرغم من إيمانه الوثيق بالله، فقد قامت قيامة الحكومة والكنيسة ضده. ولما لم يجدوه بين أيديهم لِيُصْلُوه العذاب قبضوا على الناشر وسجنوه ستة أعوام. . ! !

* * *

هذه لمحات من صراع الكلمة والسلطة في مجال الفلسفة والعلم.

أما صراعها مع السلطة في مجال الدين، فما أكثر القرابين والضحايا.

لقد كانت تهمة الإلحاد إحدى الموبقات التي اقْترفتها السلطة عَبْر التاريخ بلا وعي وبغير عدل.

وفي المسيحية والإسلام معًا، ساقت السلطات أحرارَ القلوب إلى المحاكمات والاضطهاد والتعذيب. . ولم يكن الإجهاز على حياةٍ نافعة عظيمة، أو إلحاقُ الأذى

بنفسٍ بارَّةٍ كريمة ، يُكلِّف الذين بيدهم السلطان أكثر من انفراج شفاههم عن هذه الكلمة الخاطئة الكاذبة : ملحد . . أو زنديق ! !

وكثيرا ما كان وراء التشيُّع للدين والتظاهر بالحفاظ عليه أسباب أخرى لا تمت للدين بصلة .

وعلى أية حال فقد وجدت الكلمة قِمَمًا بَشَرية ظلَّت صامدة أمام التحدِّي . . صاعدة وسْط قُوى التثبيط . . مُتهلِّلة وسط حَوَالِكِ اليأس . . .

° ° °

وهنا نلتقي بالفيلسوف المعلم « ابن رشد » . . هذا المفكر الضخم الذي بدأت به ومنه فلسفة أوربا والفلسفة المسيحية كلها باعتراف كثيرين من مفكري الغرب من بينهم الفيلسوف المعاصر « برتر اندرَسِلْ » .

ابن رشد هذا ، أكبر شارح لأرسطو، لم يكد يُسطِّر كلمات تُصَور اقتناعه ورأيه في بعض قضايا الدين مثل علم الله الذي رأى قَصره على الكليات دون الجزئيات ، ومثل خلود الروح ، حتى نصب له بعض رجال الدين الشِّباك وأغروا به الخليفة « يعقوب المنصور» فجرده من منصبه ثم نفاه خارج البلاد معلنا في مرسوم النفي « أن نار الجحيم هي المكان اللائق لأولئك الذين يريدون أن يعرفوا الحق بالعقل

وحده».. وأمر بحرق كل كتب المنطق والفلسفة..!

* * *

وفي إيطاليا نلتقي بـ«سافونا رُولا».. وعلى الرغم من أنه مارَسَ دوره كثائر ومُحرر سياسي إلا أن الدين كان مصدر تفكيره وانطلاقه.

ولقد اتُّهم بالمروق. حين كتب يقول: «إن إرادة الإنسان لا تتأثر بقوى خارجية، وإن الخالق سبحانه يجعل الكائنات تسير في نطاق قوانينها الطبيعية، وإنه سبحانه يترك إرادة الإنسان حرة حتى لا يحطمها»..

وانتهز حاكم «فلورنسا» تألبَ الكنيسة عليه، فأضاف كيده إلى كيدها.. ولم يَنس هذا الحاكم قول «سافونا رولا» لأبيه الذي ورث عرشه حين كان مُسجى على فراش الموت واستدعى «سافونا رولا» ليمنحه الغفران، فسأله:

-«هل أنت-قبل أن أمنحك الغفران-مستعد لأن تعيد الحرية إلى شعب فلورنسا؟؟!»

لم ينس الحاكم هذه العبارة.. ولم ينس البابا الكلمات اللافحَة الذي فَضح بها فَسادَه-الثائرُ «سافونا رولا».

وهكذا أصبح الناس ذات يوم ليجدوا محررهم يساق إلى الموت حرقا..!!

* * *

وإنَّ أعجب مِحنة صادَفتْها العقيدة والكلمة لهي المحنة المشهورة في تاريخ الإسلام بـ«خَلْق القرآن».. وسنقف معها وقفة أطول من وقفاتنا السالفة مع المحن التي سردناها.

ولقد يبدو لنا اليوم أن قضية خلق القرآن أو عدم خلقه لا تستحق العناء ولا التضحيات التي بذلها أئمة كبار وعلى رأسهم الإمام الجليل «أحمد بن حنبل»..

غير أنه مهما تكن وجهة نظرنا اليوم فليس ثمة ريب في أن القضية يوم أثيرت كانت مشكلة الساعة في المجتمع الإسلامي كله.. وكانت تستحق كل الاهتمام الذي أُعطي لها، سيَّما حين نتصور النتائج الدينية والسياسية التي كانت تترتب عليها.

* * *

في بداية القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي نادى «الجَعْد بن درهم» بأن القرآن مخلوق، وكان الجعد يشغل منصبا كبيرا، فهو معلم الخليفة الأموي «مروان الثاني».

وظلّت هذه الفكرة تظهر وتختفي حتى أصدر «المأمون» عام «٢١٨» هجرية قرارا باستجواب العلماء في خلْق القرآن، فمن قال: إنه مخلوق نجا.. ومن قال: إنه غير مخلوق حوكم وحلَّ به العقاب.

وكان «أحمد بن أبي دُواد» قاضي القضاة يومئذ من

أئمة المعتزلة ، ومتطرفا في اعتقاده بخلق القرآن .

وكتب « المأمون » إلى ولاة الأمصار ليُكرهوا علماءها على القول بخلق القرآن . . وسافر بشخصه إلى دمشق ليستجوب بنفسه علماءها ! !

ولقد سلّم من العلماء قوم آثروا عدم المقاومة . . ولجأ آخرون إلى المحاورة الذكية ، منهم « بِشْر بن الوليد الكندي » الذي سأله حاكم بغداد « إسحاق بن ابراهيم » .

– ما تقول في خلْق القرآن ؟

فأجاب – هو كلام الله . . .

قال الحاكم – لم أسألك عن هذا ، إنما أسألك أمخلوق هو . . ؟

قال بِشْر : – الله خالق كل شيء . . !

قال اسحاق : هل القرآن شيء . .

أجاب بشر : هو شيء . .

قال إسحاق : فَمخلوقٌ إذن . . ؟

قال بِشر : ليس بخالق . . ! !

قال إسحاق : أمخلوق هو . . ؟

قال بشر : قد أجبتك – وليس عندي بعد هذا ما أقول .

وأما « علي بن أبي مقاتل » فقد اختصر طريقه . . فحين سأله حاكم بغداد : هل القرآن مخلوق ؟

أجاب : القرآن كلام الله . . وإذا أمرَنا أمير المؤمنين بأمر سمعنا وأطعنا . . ! !

وبين الذين سلّموا بغير مقاومة ، والذين ركَنُوا إلى الحيلة والجدَل ، كان هناك قلّة اعتصمت بإيمان مطلق وشجاعة كاملة ووقفت موقفًا حاسما صُلْبا ، وعلى رأس هذه القلة الشجاعة المباركة أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، واحمد بن نصر ، ونعيم بن حماد ، وأبو يعقوب البويطي .

فأما نعيم ، وأبو يعقوب ، فقد استجوبهما « الخليفة الواثق » بنفسه حين ولي الخلافة وزجَّ بهما في السجن وماتا فيه .

وقال أبو يعقوب وهم يَدْعونه إلى التساهل كي يفرج عنه : — « والله لَأَموتن في حَدِيدِي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم » . . !

إن كلمات هذا البطل الشهيد تصور لنا طبيعة هذه القضية المجيدة ، فليست المسألة قاصرة على أن يكون القرآن مخلوقا أو غير مخلوق . بل هي مع هذا قضية سيادة الإنسان على ضميره ، وحقه في اختيار عقيدته واقتناعه

وأما « أحمد بن نصر الخُزاعي » فحين دعاه الواثق ليسأله بنفسه عن رأيه في خلق القرآن صاح في وجهه صيحة مزلزلة وقال : « وما عِلْمُكَ أنت بالقرآن ؟ ! »

وطفح وجه الخليفة الواثق بالحقد واستل سيفه ليضرب

عنق «ابن نصر» لكنَّ يده الخائرة ارتجفت ، فدعا جَلاَّده ، الذي ضرب عنق الإمام الجليل وعُلِّق رأسه في ميدان بغداد بأمر الخليفة لِيَزْدَجِرَ الآخرون . . ! !

* * *

ونعود إلى الإمام «أحمد بن حنبل» وصاحبه «محمد ابن نوح».

لقد صَمَدا في شموخ رهيب عزيز. وأمر «المأمون» أن يُرسَلا إليه في طرسوس ، بيد أنه مات وهما في الطريق . وخَلَفه المعتصم . ومات «محمد بن نوح» في سجنه ، وبقي «أحمد ابن حنبل» في السجن وحيدا .

ظل أربعة عشر شهرا بُذلت خلالها كل محاولات الترغيب والترهيب ، وهو لا يَعدلُ عن هذه الكلمات «القرآن كلام الله غير مخلوق».

وحُمل إلى المعتصم حيث دار هذا الحوار.

قال المعتصم : إن القرآن مخلوق

أحمد : كلا . . إنه غير مخلوق

المعتصم : ألم يقل الله «جعلناه قرآنا عربيا» وهل يكون الشيء مجعولا ما لم يكن مخلوقا ؟

أحمد : والله كذلك يقول «فجعلناهم كَعَصْفٍ مأكول» فهل معنى جَعَلْناهم – خَلَقْناهم ؟

واشترك في الحوار أحمد بن أبي دُوَاد قاضي القضاة فسأل الإمام أحمد قائلا :

– أليس الله يقول : « الله خالق كل شيء » والقرآن شيء ؟

فأجاب أحمد : والله يقول « تُدَمِّر كل شيء » فهل دمَّرت كل شيء ؟ !

وفي ختام الحوار، وعَد المعتصم أحمد بالإفراج عنه إذا هو أمسك لسانه وخفَّف من حِدَّة رأيه ومقاومته .

لكن الإمام أحمد وقد تعلقت به مسئولية الموقف وتبعاته رفض كل مساومة .

وألقى ابن أبي دُوَاد في رُوع الخليفة أن أيَّ انتصار لأحمد سيزلزل عرش الخليفة ويعرضه للسقوط ويجعل من الإمام أحمد زعيما شعبيا يخشى خطره . وهكذا أمعن المعتصم في إيذاء أحمد وأمر بجلده ، ويروي « المقريزي » أنه تَعَاقَب على جَلده مائة وخمسون جلاَّدًا وتلقى الإمام الباسل وَقْعَ السِّياط في صبر وجلَد .

وتطوّرت القضية تطورا كبيرا ، ولم يعد الإمام أحمد يدافع عن القرآن وحده ، بل ويدافع عن الضمير الإنساني ضد سلطة باغية تريد أن تُجرِّع ضمائر الناس عقيدتها وتريد أن تَحملهم في دينهم على مالا يرَوْنه حقا .

وتظَلُّ الراية في يمين الإمام أحمد حتى ينتصر انتصار عظيما ، ويتبدَّد خصومه واحدا بعد واحد ، وتُدفَن الفتنة المفتعلة في تراب الهزيمة . .

* * *

هذه بعض معالم الصراع بين السلطة والكلمة في الدين والعلم والفلسفة .

والآن ، ماذا كانت نتائج هذا الصراع في جملته . . ؟؟

هل اختفت الكلمة ولاَذَ الفكر بالفرار؟ ؟

لقد قُتل مَن قُتل ، ونُفي مَن نُفي ، وسُجن مَن سُجن وعُذِّب مَن عُذِّب ، ولكن ما من فكرة نشروها ولا كلمة كتبوها إلا ظلّت صامدة بعيدة من كل سجن ومن كل مشنقة .

وإن الكلمات التي سردْنا مَواقفها الجليلة تحوَّلت جميعها إلى نظريات وقوانين وعقائد . . لا شيء منها تاه في زحمة الكوارث بل عادت جميعها مثل روح الربيع عَبِقَةً ، ريَّانَةً ، فوَّاحَة . . لا شيء منها فَتَّ في عضده الهول الذي حاق بذويه ، بل سارت مع الضوء تُنادي العقول من كل صَوْب ، وتبدد الظلام في كل صَقْع ، ولم يُغيِّب الموتُ أصحابَها وأبطالها ، بل عادوا إلى الحياة من خلال أفكارهم وكلماتهم وحقَّقوا خلودا لم يظفر بأَثارَةٍ منه

خصومُهم الذين أغواهم الغرور، وظنوا أنهم قتلوا الفكر بقتل أصحابه .

ما دلالة هذا كله ؟

دَلالته أنّ مقاومة الكلمة كمقاومة الشمس . . .

والذي يبسط كفه إلى الشمس ليخنقها ويطفئها ، ليس أكثر حمقا وسذاجة من الذي يحاول خنق الفكر وإطفاء نوره .

وشيء آخر يبهر أَلْبابَنا ، ويجعل التفريط في حق الكلمة وزرًا لا تتسع له مغفرة التاريخ .

ذلك أن هؤلاء الرواد الذين ضحوا أغلى تضحية في سبيل الفكر والكلمة ، كانوا من خير من أنجبت البشرية .

أَجل ، كانوا من أفضل البشر أخلاقًا ، وأوضأهم فكرا وما كانوا ليضحوا في سبيل الكلمة كل هذه التضحية لو لم تكن الكلمة تستحقها .

إنهم لم يَسْعوا لمجد شخصي ، ولم يُشْبعوا ببذلهم نِرَةً أو حقدا .

إنما نذروا حياتهم لِدَعْم حق الإنسان في حرية الاعتقاد ، والتفكير ، والقول .

والعاقل لا يضحي بالكثير من أجل القليل . . فإذا كانوا قد بذلوا حياتهم من أجل الكلمة وحريتها ؛ فلا بُدَّ

أن حرية الكلمة تراءَتْ لهم أثمن من الحياة وأغلى.

وهذا هو الدرس الجليل الذي ينبغي للبشرية أن تَحذِقَه وتمضي مع الكلمة في هُداه.

الفصل الثالث

حُرِّيَّةُ الكَلِمَةِ، حَقٌّ مُطْلَق

لا أعرف بين حقوق الحياة الإنسانية حقًا يمكن أن يكون مُطْلَقا . .

كل الحقوق فيها نسبية . وكل الواجبات كذلك ، إلاَّ حق الكلمة ، فهو في رأيي حق مطلق لا قيود عليه ، ولا مُنتَهى له . .

والكلمة كما نَعنيها ، هي الفكرة الصادرة عن رويَّة واقتناع . .

تستهدف الخير ، لا الأذى . . والبناء لا الهدم . . وليس يَعنينا بعد هذا أن تكون أقربَ إلى الصواب أو إلى الخطأ ما دامت صادرة عن رَوِيَّة ذكية ، وعن رغبة صادقة في إرْباءِ الخير العام ومُسانَدته .

الكلمة بهذا الاعتبار، حق مطلق ليس عليها سلطان غير سلطان نفسها .

ذلك أن بلوغ أقصى مدارج التقدم الإنساني ، هو غاية الحياة الإنسانية ولُبابُ مَسعاها .

ونحن نحقق مراحل هذا التقدم بالمعرفة ، والإرادة .

فبمعرفتنا وبإرادتنا خُضنا المَفَاوز، وعانَقنا المستحيل المعجز وحوَّلناه إلى ممكن نملكه ونتحكم فيه.

والمعرفة والإرادة ثمرة الكلمة النافعة الهادية، سواء تلك الكلمات التي استشهد في سبيلها أصحابها، أم تلك التي كُتب لذويها السلامة والعافية.

ففي البَدْء – دائمًا – كانت الكلمة.. وخير جوانب التقدم الإنساني وأنقاها، وأبقاها، هي تلك التي قامت ونَمَتْ بين تيارات أمينة من الحِوار والمناقشة.

وإذا كانت الكلمة، كما أسلفنا، هي الفكر في حالة الإفصاح عن نفسه، فإنها بهذه المَثَابَة أرفع مكانة من أن تخضع لتوجيه

ذلك أن الفكر هو الذي يُوجِّه ويَهدي..

وحين نضع أبصارنا على أيِّ عملٍ من أعمال الحياة الإنسانية نجد الفكر سيد هذا العمل ومُنْشِئه..

الفكر يخلق العمال. ويرسم خططه ومناهجه.

وإذا وُجدت سُلطة مهما تكُن ذكية وعادلة، تريد أن تنتحل لنفسها حق توجيه الفكر، فإنها تقع في تناقض يتعبها.

إذ بأي شيء ستوجه الفكر..؟

بالقانون..؟، القانون فكر.

والقوانين العادلة الخيِّرة. ثمرة الفكر العادل الخيِّر،

ومن ثَمَّ فهي لا ترتفع أبدًا إلى مستوى توجيه الفكر الذي يحفظها من الجمود بما يحدثه لها من إضافات وتطوير.

فالفكر إذن هو الذي يضع قيوده ويرسم حدوده حين يحتاج إلى قيود وحدود.. وهو حين يختار هذه القيود والضوابط يختارها ملائمة لطبيعته المنطلقة الحرة.

* * *

وليس الفكر.. وليست الكلمة المسطورة الهادية نبراس تقدمنا المادي فحسب.. بل والروحي أيضًا.

وحين نلتقي في التاريخ أو في الحياة بعظيم من عظماء البشر ورُواد الحياة. نجده ابنًا شرعيًا وبارًّا للكلمة الحرّة.

حتى الرسل والأنبياء..

إن أول أمر إلهي تلقاه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لم يكن.. صَلِّ، ولا صُمْ، ولا جاهِدْ.. إنما كان: اقرأ.!!

والحياة الإنسانية في تقدمها وتفوُّقها ليست مدينة لذوي الأهواء والإمَّعات، بل هي مدينة في ذلك لذوي الإيمان والاقتناع، الذين تتحدد علاقاتهم بالحياة وبالناس عن طريق قضية جليلة يؤمنون بها، ويقتنعون بحتميتها وجَدْواها.

ونحن لا نُكوِّن اقتناعنا وإيماننا إلا بالكلمة وحدها.

وكل إنسان له رسالة وهدف فهو الثمرة – الحلوة – للفكر والكلمة .

وإذا كان التقدم الإنساني موصولَ أسبابِ المصير بالكلمة إلى هذا المدى البعيد والأكيد ، فإلامَ تدعونا تبعاتنا تجاه هذا التقدم . . ؟ ؟

إن الإجابة واضحة جداً ، وهي : تنمية الوسائل التي تمنحنا التقدم وتُعيننا عليه .

فواجبنا إذن احترام الكلمة وتنمية فرصها .

* * *

والذين يحاولون توجيه الفكر وإخضاع الكلمة ، يفوتهم الكثير جداً من مزايا الفكر ومنافع الكلمة .

والذين يَقْمعون الكلمة دفاعاً عن خير عام ، ومصلحة عامة لا يدركون حقيقة الخير والصلاح ، لأن الخير العام لا يجد اكتماله إلا في ظل الحوار والمناقشة .

وقمع الكلمة قد يحقق الظفر بمزية مّا ، كالنظام مثلا ، ولكنه في نفس الوقت يُفوِّت فرصاً أخرى أهم ، ويضيِّع مزايا اعظم .

وحين يبدو أن هناك ضرورة لقمع الكلمة دفاعاً عن التقدم ، فإن ذلك لا يعني أن الكلمة والتقدم في خصومة . إنما يعني أن خطأ وقع . إمَّا في طريقة استخدامنا للكلمة .

وإما في طريقة فهمنا للتقدم ، وإما في طريقة الملاءمة بين الصالح الخاص ، والصالح العام .

ومهما يكن من أمر ، فتوجيه الفكر أو قَمْعُه . لا يخدم قضية التقدم ، ولا يخدم الحرية والسلام ، الضرورَيْن للتقدم .

وحين ترى الحكومات أن من حقها المشروع إخضاع الفكر والكلمة ، فيومئذ لا يتمثَّل الناس بقول جيفرسون « إن أفضل الحكومات ، أقلُّها حكما » . . بل يتمثلون بقول ثورو : « إن أفضل الحكومات . هي التي لا تحكم إطلاقا » . . . . !

° ° °

إن في الكلمة الحرة النافعة تكْمُن أزكَى ضرورات الحياة الإنسانية .

والنفع الاجتماعي الذي تمنحه سيادة الكلمة ، يَفوق كل نفع آخر .

والفرد ، والأمة ، والدولة . . هؤلاء الثلاثة لا يجدون ذواتهم ، وحقيقتهم إلا خلال الكلمة الحرة والفكر الطليق .

فالفرد ساعةَ يُولد ، لا يُعطَى حياته ، إنما يُعطَى وجودَه لا غير . . ثم هو حين يكبر ، يبدأ فيمارس دوره الأساسي في تكوين نفسه واختيار حياته .

ونحن حين يُكتب على أحدنا أن يختار حياته من «نَموذَج» واحد.. ويصوغها من خلال وجهة نظر واحدة، تندفع هذه الحياة في طريق مسدود، وتُحرَمُ من مزايا الحياة المبْثُوثة في طرائقها الكُثْر.

وحين تُفرض على أحدنا بسبب ظروف نَشْأته أو بيئته حياة معينة، فإنه يقضي عمره أجيرًا لسيد لا يحبه ولا يُطيقه.

إن الفرد الحيّ، هو الذي يُوفَّق في اختيار حياته.

ولكي نختار، يجب أن يكون هناك أشياء نختار منها ونُفَاضِلُ بينها، ويجب أن نملك القدرة على هذا الاختيار.

ونحن لا نحيا؛ لأننا أحياء.. بل نحن أحياء؛ لأننا نحيا.

وكلما كانت حياة الفرد خِصْبة، مُتنوعة. مُعْطية، كانت جديرة باهتمامه الدائب، وكانت عونا له على تفوقه المُثَابر.

وحياة الفرد لا تستمد سعادتها وازدهارها من عزلته وانفصاله.. بل من ارتباطها الوثيق بحياة أمته والناس من حوله.

من أجل هذا لا يتحتّم عليه أن يكون فَطِنًا في اختيار حياته وحدها، بل وفي اختيار الحياة في وطنه. وفى عالمه.

وسَبِيلُه لهذا أن يكون له رأي في نوع هذه الحياة . . وهو لكي يُكوِّن هذا الرأي لابد وأن يستهدي بآراء جميع الأفراد الآخرين .

والفكر الجوَّال في كل واد ، والكلمة الخالصة من كل الْتواء ، هما السبيل الأوحد لإيجاد الرأي النافع والاختيار السديد .

إن الحياة تتقهقر كثيرا حين تخفُّ حماسة الناس لها ، وحين يتضاءلُ اهتمامهم بها .

والمجتمع الذي يتكوَّن من أفراد فاترين باهتين ، يفقد كثيرا من مُقوِّمات يومِه وفُرَص غدِه .

المجتمع الذكي الموفق هو الذي يساعد أفراده دائما على رَعْرَعَةِ آمالهم ، وتَوقُّدِ عزائمهم . وتهلُّل أشواقهم ، وجَسَارة مُحاولاتهم . وبَعْث اهتمامهم .

وإذا تعمقنا سيكْلُوجية الإنسان ، وجدنا أن الناس لا يهتمون بالأشياء لأنها تستحق الاهتمام . بقدر ما يهتمون بها لأنها تعكس اهتمامهم بأنفسهم .

فأنت ، وأنا ، والآخرون لا نهتم بالمأكل الشهيِّ ، والمسكن المريح ، والملبس الأنيق ، والدَّخْل الوفير ، بل والسلوك الحميد . لأن هذه تستحق الاهتمام لذاتها . . بل نهتم بها لأنها تعكس اهتمامنا بأنفسنا نحن . ومسرَّاتنا نحن .

من أجل هذا . يكون الوَطن الذكي الصالح ، هو الذي يُضْفي على مواطنيه إحساسا غامرا وصادقا باهتمامه بهم واعتماده عليهم .

وكلما أحس الفرد أن وطنه يحتاجه ، ويعتمد عليه . وأنه بذاته يُمثل ضرورة حية لأمته . وأن مكانه في الصف مهما يكن محدودًا فإنه يَسدّ ثَغرة ويحمي كِيانًا .. أقول كلما غمر الفردَ هذا الإحساس ، انطلقت قواه في تهلُّل ، وانتعش اهتمامه في إصرار .

وفي رأيي أن سرَّ نجاح الديمقراطيه ، وسرَّ عظمتها ، قدرتُها الفائقة على إشعار الناس بأهميتهم . وهُتافها الدائم بأن الكلمة كلمتهم ، والإرادة إرادتهم ، وأن الدفَّةَ كلها في أيديهم .

وإذا كانت أهمية الفرد – أي فرد – لا تتمثَّل في شيء كما تتمثل في الحاجة إليه ، فإنه لكي يحس هذه الأهمية ، ولكي يلبي نداء الحاجة إليه يجب أن يفكر كما يشاء ، ويقول ما يشاء ، مستعينا بآراء الآخرين الذين سيفكرون أيضا كما يشاءون ويقولون ما يريدون .

وهكذا ، لا يظفر الناس بالمزيد من احتمالات الصواب ورُؤَى الصدق فحسب . بل وينمو فيهم واجب الاهتمام ببلادهم وقضاياهم .

إن الصمت ، ليس دليلَ الرضا ، كما يقول المثل العامي . إنما هو أقرب إلى السلبية ، واللاَّمُبالاة ، والتربُّص .

وإن الكلمة ، حتى حين تجيء معارِضة للرأي السائد والمألوف ، لَتدلُّ على أن قائلها يحمل من فضيلة الاهتمام ما يحمله على القول والمناقشة .

° ° °

والناس حين يتكلمون تختلف ألسنتهم وآراؤهم ؛ لأنهم لم يُخلَقوا في قالب واحد . . وحاجة الحقيقة إلى آرائهم مجتمعين لا تختلف أدنى اختلاف عن حاجتها إلى رأي كل فرد على حِدة .

وحين يُحسُّ الفرد أهميته بالنسبة للآخرين ، وأهمية كلمته بالنسبة للحق ذاته ، فإنه عندئذ يُواتيه من الثقة والطمأنينة مالا غِنى له عنه ، لكي يكون لَبِنةً حية وثيقةً في بناء أمته وعالَمه .

عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُصوِّر قدرته المطلقة وعظمته الكاملة قال : « إنما قولنا لشيء إذا أردْناه أن نقول له كُنْ ، فيكُون » .

« نقول » له كن . .

إنه لا شيء يرفع من أقدار الناس مثل قدرتهم على أن يقولوا . . ومثل إحساسهم بأن لما يقولونه نفوذا واعتباراً .

والناس لا تُواتيهم الثقة بأنفسهم والأمْن في حياتهم عن طريق مّا ، مثلما تواتيهم بسبب التعبير الحرّ عن أنفسهم ، وعن آرائهم .

وإن الفرد ليُدرك بسهولة لماذا هو يخاف إذا سَرَق ، أو قَتل ، أو أخلَّ بواجباته العامة . ولكنه لا يجد أيَّ مبرر منطقي للمخاوف التي تَنْتابُه إذا هو أبدى رأيه ، وقال كلمته ، وشارَكَ بالرأي الأمين وبالكلمة النافعة في مشاكل مجتمعه .

ولهذا كان إقرارُ حَقِّ الكلمة دَعْمًا لحق الإنسان في الطمأنينة والأمْن .

والناس إذا خافوا من إبداء آرائهم لم يحرصوا على أن تكُونَ لهم آراء ، وفَقدوا على الأيام قدرتهم على تكوين آرائهم .

وإذا تعوَّد الناس أن يعيشوا بغير إعمال آرائهم فقَدُوا حاجتهم إلى الاقْتناع ، وفقدوا الإيمان الذي يكون ثمرة اقتناع واختيار. وعندئذ يتحول وجودهم إلى خَواءٍ مُوحِش وفراغ كئيب .

لقد كان الفيلسوف «مِلْ» صادقا حين قال : «إن شخصا واحدا ذا عقيدة ، يساوي تسعة وتسعين من ذوي الهوى والغَرض» .

وإننا – دائما – لَنجد ذوي الهوى والغرض من الذين لا رأي لهم ولا إيمان .

بينما نجد – دائما – ذوي العقائد الصادقة من الذين يتعبون في اختيار آرائهم وتمحيصها ، ولا نجد أحدهم يعدل عن رأي إلى آخر إلا عن اقتناع جديد .

والمُواطن الكبير لا يتوسَّل بالإمَّعِيَّة إلى الظفر بالمغانم ولكنه يتوسَّل بالاقتناع إلى تَبيُّن مسئولياته .

ولكي يكثر عدد المواطنين الكبار في أمة ينبغي أن ينمو فيها جميعًا الشعورُ بقيمة الرأي وجلال الكلمة .

لقد وُصِفَ « بِسْمارْك » بأنه أنشأ وطنًا كبيرًا ولكنه خلَّف مُواطنين ضِئالاً . .

وليس يعنينا أن نعرف مدى ما في هذا الحكم من الصدق بالنسبة لبسمارك . .

في البدء كان الكلمة

* أريد أن أقول للقارىء : إذا كنتَ ستقرأ هذا الكتاب كلمة كلمة ، فعليك أن تناقشه كلمة كلمة .

* إن هذه الصفحات لا تطمع فى أن تعلّمك شيئاً جديداً ، وإنما تطمع فى أن تحفزك إلى تحرير عقلك فى الجهات الأربع ، وتحفزك إلى أن تنمّى لديك فضيلة البحث الحر عن الحق ، وتحفزك إلى حمل أمانة وجودك بأن تناقش كل ما حولك من قضايا الوطن ، وقضايا البشر ، وقضايا الحياة .

خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ ش الشيخ ريحان – عابدين – القاهر